اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

وما كانت هذه الحياة المضطربة تخلو من أوقات لها لذتها وصفاؤها ، فقد كان معاشرو ديجنه من الطبقة الراقية وأكثرهم من أرباب الفنون ، فكنا نمضى ليالى عديدة يسود سمرنا الخليع فيها ما يبعد جد البعد عن الفحشاء ؛ وكان أحد الصحاب عاشقاً مغنية مشهورة تشجينا بصوتها الساحر الحزين . ولكم جلسنا إلى المائدة فنسينا ما علينا من طعام مستغرقين فيما يثير إنشاد هذه المغنية فى نفوسنا من حنين ! ولكم درنا بأقداح الشراب ونحن نصغى إلى أحدنا يلقى علينا بصوت عميق رائع بعض مقطوعات من لامارتين ؛ فكنا نؤخذ بمعانيها حتى كأن تفكيرنا حصر فى دائرة منها ؛ فكانت تمر الساعات دون أن نشعر بها ، حتى إذا جلسنا بعدها إلى المائدة سادنا سكوت رهيب وعلقت بأهدابنا الدموع

وكان يتجلى هذا التأثير فى مثل هذه الأوقات على ديجنه بأكثر من تجليه فى الآخرين وهو المعروف بيننا بصلابة خلقه وبرودة طبعه ، فكانت العواطف تتدفق من كلماته ولفتاته كأنه شاعر ساعة نزول الالهام عليه . وما كانت تنتهى نوبة استسلامه لشعوره حتى يبدأ رد الفعل فى أعضائه فينقلب إلى المرح الجنونى كارعاً من الخمر ما يفقده رشده فيستولى عليه روح الهدم والتحطيم . ولكم رأيته يختتم نوبه هذه بقذفه كرسياً إلى نافذة مغلقة يحطم زجاجها بقرقعة تعم الآذان

وكنت أرانى مندفعاً بالرغم منى إلى تشريح أخلاق هذا الرجل ، فكان يلوح لى كأنه فرد من مجتمع غريب لا أعرف له مقراً على هذه الأرض . فما كنت أعلم أكان هذا الانسان مسيراً فى عمله بيأس مريض أم بدلال ولد صغير

وكان ديجنه يبدو بخاصة فى أيام الأعياد كأنه مأخوذ بثورة عصبية فيأتى بأعمال صبيانية يحتفظ فيها بكل برودة خلقه فكان من يراه لا يتمالك من الاستغراق فى الضحك . وقد أقنعنى يوماً بأن أخرج للتنزه معه وحدنا عند الغسق فارتدينا أثواباً غريبة الشكل وقنعنا وجهينا وحمل كل منا آلة موسيقية وذهبنا على هذه الصورة تائهين فى الأحياء الصاخبة محتفظين برصانة أرباب الفنون ؛ وصادفنا فى تجوالنا عربة كان سائقها قد دبّ فيه النعاس فنام على مقعده فسارعنا إلى حل أربطة الفرسين ثم تقدمنا إليه وصحنا به فأفاق ، وركبنا العربة طالبين منه إيصالنا ، ومالوح السكين بسوطه فى الهواء حتى ذهب الفرسان خبباً وبقى هو فى عربته مشدوهاً ، وتوجهنا بعد ذلك إلى الشانزليزيه فرأى ديجنه عربة تتقدم نحونا فاعترضها وأمر السائق بالوقوف وتهدده بالقتل إن لم يترجل عن مقعده ؛ وإذ نزل الرجل عند إرادته مذعوراً أمره بالانبطاح على الأرض معرضاً نفسه لأوخم العواقب ؛ ثم فتح باب العربة كأنه قاطع طريق فرأينا شاباً وسيدة استولى عليهما الرعب الشديد ؛ وأمرنى ديجنه بمجاراته فيما سيفعل ، فأخذ يقفز من الباب ليعود

فيقفز من الباب الآخر وأما أتبعه حتى خيل الى من فى العربة والظلام سائد أن المهاجمين عصابة من اللصوص

يقول لك بعض الناس إن الحياة تولى من يبتليها اختباراً ؛ ولعلهم يعجبون فى سرائرهم إذ يصدقهم سامعوهم . وهل العالم إلا عاصفة إعصار لا يشبه أحدها الآخر ؟ فكل ما فى الحياة يذهب بدداً كسرب أطيار ينتشر فى الفضاء الفسيح ، فما تجد مدينة تتشابه أحياؤها ؛ فمن عرف أحدها يبقى جاهلاً لسائرها ؛ غير أن هذه الأعاصير التى تدور منذ وجود العالم لم تزل تخترقها سبعة أشباح لا تتغير على ممر الأجيال : وأولها يسمى الأمل ، والثانى الضمير ، والثالث الرأى ، والرابع الشهوة ، والخامس الحزن ، والسادس الكبرياء ، أما الأخير فيسمى الانسان

وما كنت وأصحابى إلا كسرب أطيار ، فبقينا سوية إلى أن جاء الربيع فلعب حيناً ، ونركض أحياناً

ولعل القارىء يتساءل أين النساء فى هذه الحوادث وأين هى الفحشاء ؟

وماذا عسانى أقول عن هذه المخلوقات الحاملات اسم النساء واللواتى راودن حياتى كأشباح أحلام ؟ أيمكن للانسان أن يحتفظ بالذكريات من وقائع لم يكن فيها شىء من الأمانى والآمال ؟

وأين أجد هذه الوقائع الآفلة لأثير منها تذكاراً ؟ وهل من شبح أشد صمتاً منك أيتها المرأة العابرة كالظل ؟ وهل من انطباع أسرع إلى الزوال منك فى صفحة الذكريات ؟

وإذا كان لا بد من إيراد شىء عن النساء فلأذكرن منهن اثنتين :

وإليك الأولى

أسألك أولا عما يمكن أن تؤول إليه عاملة بالخياطة لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً تتدفق شهوة الصبا من إهابها الغض وعلى خوان عملها رواية كل صفحاتها صبابة وغرام ، وهى لم تتلفن علماً ولا تعرف عن الآداب والأخلاق شيئاً فتقضى حياتها تخيط الأثواب أمام نافذتها حيث تمتد طريق منع رجال الشرطة المرور عليها ليجيئها عند المساء رهط من بنات الهوى الحاملات الأجازات يخطرن عليها ذهاباً وإياباً ، ماتفعل هذه الفتاة بعد أن تكون قطعت أصابعها واستنفدت نور عينيها منذ الصباح حتى المساء عاملة فى رداء أو فى قبعة إذا هى اتكأت عند الغسق إلى نافذتها فرأت ما عملت فيه يداها الشريفتان لكسب قوت من حولها يرتديه قوام فاجرة ورأس عاهرة ؟ . . .

ولكم من عربة تقف أمام بابها كل يوم فتترجل منها فتاة لها رقمها كالعربة التى تستقلها ، وتدخل على هذه العاملة المسكينة لتحدجها بلفتات الاحتقار وتقف أمام مرآتها لتجرب مراراً الرداء الذى انكبت عليه فى سواد الليالى لأنجازه . وتخرج العاهرة من كيسها ستة دنانير يتوهج ذهبها ، وهى العاملة لا تكسب إلا ديناراً طوال أسبوعها ، فلا تملك نفسها من التفرس فيها والتأمل فيما تلبس من حلى ثم تتيمها بأنظارها حتى تركب عربتها وتتوارى

ويجىء يوم ينقطع فيه العمل عنها ويسود الظلام على البيت الذى تظلله الفاقة ، وقد انطرحت فى إحدى زواياه الأم المريضة ، فتفتح العاملة البائسة بابها وتمد يدها قابضة على مجهول يمر على الطريق . . .

هذه هى حكاية الفتاة التى تعرفت إليها . وكانت تحسن العزف قليلاً على البيانو وتعرف شيئاً من فن الرسم ومن التاريخ والصرف ، فكانت كل معارفها على هذا النحو شيئاً يسيراً من كل شىء . ولكم كنت أنعم النظر فى هذه المخلوقة

والأسى يرين على قلبي إذ أرى فيها بداية عمل الطبيعة ونهاية ما يأتيه المجتمع من التشويه ! ولكم شخصت بشخوصي أمامها إلى ليل مدلهم تلوح فيه شرارات ضئيلة من نور عليل

ولكم حاولت أن أشعل بعض الجمرات الخامدة تحت هذا الرماد ، وقد كانت حلة شعرها بلونه ، فكنا ندعوها (ساندريون)

وما كانت ثروتي تسمح لي بأن أعين لها معلمين فتولى ديجنه الانفاق على تعليمها ، ولكنها عجزت عن بلوغ أي نجاح ، فما كان المعلم يتوارى عن نظرها حتى تكتف يديها وتبقى الساعات الطويلة محدقة بما وراء نافذتها . وكانت تمر الأيام على هذه الوتيرة فتهددتها يوماً بأنني سأقطع عنها المال إذا هي لم تجتهد ، فبدأت بالعمل دون إبداء أية مقاومة ، ولكن بلغني بعد ذلك أنها كانت تخرج خلسة من البيت ولا يعلم إلا الله إلى أين كانت تذهب ، فرجوتها قبل أن أمر حها أن تطرز لي كيساً ، وقد احتفظت بهذا الكيس مدة طويلة كذخيرة حزينة وأبقيته معلقاً على جدار غرفتي كأنه رسم لكل طلل عافٍ في هذه الحياة

أما الثانية فهذه قصتها :

وكانت الساعة العاشرة مساء ، وكنا قضينا نهارنا في الرياضة المتعبة فتوجهنا إلى منزل ديجنه وكان هو قد سبقنا إليه لاعداد ما يلزم لليلة راقصة . ولما دخلنا البهو رأيناه مزدحماً بالمدعوين وبينهم عدد وفير من الممثلات ، وقد بين لي الصحاب السبب في دعوتهن إلى الحفلات فقالوا إن الرجال يتزاحمون عليهن

وما وصلت إلى القاعة حتى اندفعت مع تيار الراقصين ، وكنت شديد الميل إلى رقصة (الفالس) إذ ليس بين أنواع الرقص ما يماثلها خفة ورشاقة وليس غيرها إلا حركات لا معنى لها يقصد منها انتهاز الفرصة للأخذ بأحاديث لا طائل تحتها . أما (الفالس) فرقصة تتيح لك أن تتمتع بالمرأة التي تضمها نصف ساعة بين ذراعيك وتسير بها بين تصادم الراقصين وهي خفة الجوارح فتكاد لا تعلم إذا كنت تغتصب إرادتها أو تحمي ضعفها . وكم بين الراقصات من يستسلمن إلى قيادتك بخفر تتدفق الشهوة منه فلا تعلم ما يدور في خلدك أشهوة هو أم حذر ، وتقف مرتاباً في نفسك فلا تدري حين تشد بالراقصة إلى قلبك أتترنح ثملة أم تقصف كالقصبة الضعيفة بين يديك

لا ريب في أن ألمانيا التي اخترعت هذا النوع من الرقص بلاد ما خفيت حقيقة الحب عن أهلها

وكنت أخاصر راقصة رائعة الجمال تنتمي إلى المسرح الايطالي جاءت إلى باريس لتمضية أعياد المرفع ؛ وكانت بزي الراقصات في هيكل إلهة الخمر ترتدي قفطاناً من جلد النمور ، وما كنت رأيت في حياتي امرأة تشبه هذه المرأة في دلالها ، فقد كانت ممشوقة القد ناحلة القوام تنطلق في خطواتها بسرعة ، ولكنك تخالها تنسحب سحباً وهي تتقصف في دلها . ولقد يحسب الناظر إليها أنها تتعب مراقصها في حين أنه لا يحس بها إلا كخيال ميال بين ساعديه

وكانت هذه الفانية مزينة صدرها بطاقة كبيرة من الورد تورثني نشوة أين منها نشوة الراح ؛ وكانت تنطوي على ساعدي لأقل حركة كأنها من الأماليد عاشقات الشجر ، فكنت إخالها بما فيها من ليونة وعذوبة خلابة وشاحاً من ناعم الحرير يلفني كأذيال الغمام . وكان عقدها المتدلي من عنقها يهتز في كل دورة من دوران الرقص ضارباً على نطاقها المدني فأسمع له صوتاً خافتاً كخفيف الغصون . وكان في حركاتها من الجلال ما يوقفني منها أمام كوكب

رائع يبتسم لى فأخالها جنية تنشر جناحيها لتعود أدراجها . وكأن الموسيقى الشجية الهائمة كانت تصدح من بين شفتيها وهى مائلة برأسها إلى الوراء تكللها الضفائر السوداء ، وقد أرهق عنقها من ثقلها فالتوى

وما انتهى دور الرقص حتى ارتميت على مقعد فى زاوية القاعة ، وكان قلبى ينبض بسرعة قطعت أنفاسى ، فهتفت قائلا : يا لله مما رأيت ! يا للمسخ الرائع ! ويا لك من أفعى كلها حسن وجمال تعرف كيف تلتف وكيف تتململ بجلدها اللين الأرقط ! ... لقد علمتك حية الجنان المغوية كيف تلتفين على شجرة الحياة وبين أسنانك ثمرة الموت . يا لك ساحرة تتحكمين فى قلوب الناس وتعلمين ما يفعل بهم هذا الدلال الذى يتجاهل قوته ! وهلا تعلمين أنك تهلكين وتغرقين وأن كل من لمسك سيحل به العذاب ، وأن ابتسامك وعبق أزهارك والاقتراب إلى ملاذك يؤدى إلى الموت ... ذلك هو سر الحلاوة فى افتراز ثغرك وتفتق أزهارك ، فأنت تعرفين هدفك عند ما ترسلين معصمك متراخياً على الكواهل

لقد أعلن الأستاذ هاللى حقيقة مروعة حين قال : (إن المرأة عصب البشرية والرجل عضلها) وقد قال هومبولت العالم الجدى نفسه : إن أعصاب البشر يحوطها إشعاع خفى . وأتباع سبلانزانى يعتقدون أيضاً أنهم اكتشفوا الحاسة السادسة . إن فى هذه الطبيعة التى تقذف بنا إلى الوجود ثم تدفعنا إلى الموت وهى هازئة بنا من القوات الخفية ما يكفيها ، فلا نضيفن إلى ما نتسكع به من ظلمات ظلمات أخرى

ولكن أى رجل يعتقد أنه تمتع بالحياة إذا هو أنكر سلطان المرأة عليه ، إذا هو لم يشعر بارتعاش ساعديه بعد أن يكون خاصر امرأة جميلة وراقصها وإذا هو لم ينفذ إليه ذلك الشىء المجهول أو تلك الكهارب المسكرة التى تنتشر فى المرقص حين تتعالى النغمات ويكسف لهب الجسوم أنوار المصابيح وما تنتشر هذه الكهارب إلا من أجسام الحسان فيتكهربن بها أولاً ، ثم تهب منهن كالعبق المتصاعد من مبخرة تتمايل مع الرياح

واستولى علىّ خبلٌ سريع . وما كنت أجهل أن الحب يورث هذا الخبل ، وما كانت هذه أول مرة عرفته ، ولكننى ما كنت أعلم من قبل أن بوسع امرأة أن تدفع بالقلب إلى مثل هذا الخفوق وأن تثير فى المخيلة مثل هذه الأشباح بجمالها وبأزهارها وبثوب مخطط بجلد الحيوان المفترس ، وبحركات دوران اقتبستها من أحد المهرجين ، وبالتفاف معصم بض على كتف ، وذلك دون أن تنبس بكلمة أو تبدى فكرة واحدة كأنها تترفع عن الاعتراف بعزتها وسلطانها

وما كان ما أشعر به من الحب بل من الظمأ المحرق ، فانى لأول مرة فى حياتى كنت أشعر باهتزاز أوتار مشدودة منى على غير قلبى ، فان تجلى هذا الحيوان الرائع لعينى كان قد استنطق وتراً غير أوتار القلب فى أحشائى ، وما كنت أحس بنفسى ما يدفعنى إلى أن أقول لهذه الغانية إننى أحببتها أو أعجبت بها أو حتى لأعلن لها تقديرى لجمالها ، فما كنت أشعر أن على شفتىّ ألا تعطشا للالتصاق بشفتيها لأقول لها : منطقينى بهذين المعصمين المتراخيين وألقى على كتفى رأسك المائل وارشقى بهذه البسمة العذبة شفتى

لقد عشق جسدى جسدها فكنت من جمالها فى سكرة كسكرة الراح ...

ومر بى ديجنه فسألنى عما أفعل حيث كنت فأجبته : من هى هذه المرأة ؟ فقال : وأية امرأة

تعنى ؟ فقبضت على ساعده وسرت به فى القاعة ؛ ولحظت الايطالية أننا نتجه نحوها فابتسمت وإذ تراجعت قليلاً قال ديجنه — آه لقد رقصت مع ماركو ...

— ومن هى ماركو ؟

— هى تلك المدللة الضاحكة هنالك . . . فهل أنت معجب بها ؟

— لا ، لقد رقصت معها وأحب أن أعرف اسمها . وهذا كل إعجابى بها

وما قلت هذا إلا لأننى شعرت بشىء من الخجل ، فتولى ديجنه عنى وذهبت أنا نحو الايطالية ، فاستوقفنى قائلا : رويدك ، ياأوكتاف ! ليست ماركو كسائر البنات ، فهى فى عهدة سفير ميلانو وتكاد تكون زوجة له ، وقد جاءت إلى هذه السهرة مع أحد أصحاب السفير ، غير أننى سأكلمها فى شأنك فلا أدعك تموت إلا إذا لم يكن بد من موتك . سأحاول إبقاء ماركو عندنا للعشاء

قال هذا وتوجه إليها فسادنى اضطراب يعجز بيانى عن تحديده ، وما بدأ بمحادثتها حتى تمشيا سوية وغابا عن عيانى بين ذرافات المدعوين

وكنت أناجى نفسى قائلا : أيمكن أن يصيب حدسى ؟ أتكون هذه المرأة هى من سأحب ؟ ولكن ما لقلبى ولهذا فأن حواسى وحدها تعمل عملها بمعزل عنه

وكنت أحاول بمثل هذا التفكير أن أهدئ روعى . وما طال انتظارى حتى شعرت بيد ديجنه تلقى على كتفى وهو يقول : سنذهب إلى المائدة ، وعليك أن تشبك ساعدك بساعد ماركو فهى تعرف أنك معجب بها وقد تم الاتفاق ...

فقلت : إسمع ، يا ديجنه ، إن ما أشعر به يفوت إدراكى ، فكأننى فى رؤى أشهد (فولكان) فيها يسحب رجله العرجاء ليطبق على (فينوس) ويشبعها تقبيلا ، ولحيته تعبق بدخان مصنعه وهو يحدج بنظراته الزائغة جسم إلهة الجمال البض مستغرقا فى التحديق بها وهى كل ما يملك فيحاول أن يبتسم ويتظاهر بالارتعاش مسرة وحبورا ، ولكنه فى الوقت نفسه يتذكر أباه كبير الآلهة (جوبيتير) الجالس على عرشه فى السماء

وحدق ديجنه فى وجهى ولكنه لم يجب بل قبض على يدى وجرنى قائلا :

إننى جد متعب وأشعر بحزن ، فأن هذا الصخب يقتلنى . هيا بنا إلى المائدة نستعيد قوانا

وجلسنا إلى مأدبة جمعت كل ما لذ وطاب ، ولكننى كنت أشاهدها ولا أتمتع بها إذ كانت شفتاى ترتجفان فى انقباضهما ، وسألتنى ماركو عما بى فبقيت شاخصا كالصنم أسرح أبصارى من رأسها إلى قدميها صامتاً ذاهلاً

وما تمالكت ماركو نفسها من الضحك فضحك ديجنه معها من بعيد وهو يرقبنا . وكانت أمامها كأس كبيرة من البلور تنعكس عليها الأنوار فتتكسر على أضلاعها لتشع بالسبعة الألوان . ومدت يدها التراخية فملأت الكأس بخمرة قبرصية فيها حلاوة الشرق ونكهته وقدمتها الى قائلة :

— هذه لك يا بنى

أخذت الكأس ثم أعدتها إليها قائلا :

بل لك ولى

ورطبت شفتيها من الحباب وأعادتها إلى فكرعتها دفعة واحدة وأنا أرسل إليها نظرات حزينة فاتتها معانيها

فسألتنى : أرديئة هى ؟

— لا

— أمتعب أنت ؟

— لا

— أتشكو صداعا ؟

— لا

— ما بك إذا إلا هموم غرام

وظهرت على وجهها علائم الجد ، وكنت أعلم أنها وليدة نابولى لذلك نبضت إيطاليا فى قلبها عندما تفوهت باسم الغرام

وفى هـذه الأثناء كانت الدماء تتصاعد إلى الرؤوس والأقداح تتصادم بين الأنامل وبدأت الخدود تصطبغ بلون الخمر فكأنهـا كانت تبرقع أشد الوجوه اصفرارا كيلا تملوها من الخجل حمرته . وكانت الضجة تتعالى وتنخفض كأنهـا نبرات أمواج ، والأحداق ترسل لمعانها إلى كل صوب ثم تذهب تائهة . . . فكأن فى القاعة نسمات خفية كانت تخفق فيها كل هذه الأرواح الهائمة فى نشوتها ، وكل روح تتلمس طريقها إلى سواها

وهبت إحدى النساء من مكانها بين الحشد كما تتعالى على صفحة البحر الساكن أول موجة تتنسم العاصفة فتملو منذرة باقترابهـا . وقفت وأشارت بيدها لينصت الحضور إليها وكرعت كأسها ثم حولت أنامله إلى شعرها تنثر غدائرها الذهبية على كتفيها وعلى صدرها المتهدج بأنفاسه ، فما أسمعتنا سوى نبرتين مختنقتين وامتقع لونها فجأة فتراخت على مقعدها

وقامت قيامة الحاضرين ، فسادهم الهرج والمرج حتى نهاية السمر ، فما كان لأحد أن يتميز شيئاً وقد اختلط الضحك بالغناء والصراخ

وسألنى ديجنه عما أقول فى هذا فأجبته بأننى لا أجد ما أقوله ، فما لى إلا أن أسد أذنى وأسرح أبصارى ...

وبقيت ماركو ساكنة وسط هذه المعمعة فلم تتكلم ولم تشرب بل أسندت رأسها بيدها وتاهت فى أحلامها . وما كان يلوح على وجهها ما يدل على تأثر أو استغراب ؛ فقلت لها :

— أما تريدين أن تفعلى ما يفعلون ؟ لقد سقيتنى خمرة الشرق فهل لك بتذوقها ؟

قلت هذا وملأت كأسها دهاقا فرفعتها ببطء إلى فمها وارتشفتها حتى الثمالة ، وبعد أن أعادت الكأس إلى المائدة عادت إلى استغراقها

وكنت كلما أدمت النظر الى هذه الفادة أزداد استغرابا لحالها ، فهى لا تسر لشىء ولا يضايقها شىء ؛ بل تفعل ما يطلب منها ولا تقوم بأية حركة من تلقاء نفسها فذكرتنى بتمثال الراحة الأبدية ؛ فقلت فى نفسى لو نفخت روح فى هذا التمثال لما كان يبدو لنا إلا كماركو ثانية

وكنت أقول لها : أأنت طيبة القلب أم أنت شريرة ... أحزينة أنت أم مرحة ... أيروقك أن تحبى ... أتهوين المال واللذات ... وأى نوع منها تفضلين . . . أسباق الخيل أم الخمر أم الرقص . . . أى شىء يعجبك ... وعاذا تحلمين ؟

فما كنت أظفر منها إلا بجواب واحد على جميع هذا ، وهو ابتسامة لا حزن فيها ولا سرور ، كأنها تعنى الاستسلام وعدم المبالاة

وقربت إلى مبسمها شفتى فألقت عليهما قبلة متراخية تشبهها ، ثم رفعت منديلها الى فمها فصرخت بها : ويل لمن سيحبك يا ماركو ...

فألقت إلى بنظرة من مقلتها السوداء ثم رفعتها إلى العلا وأشارت باصبعها بحركة إيطالية لا تقلد ولفظت بتمهل الكلمة الكبرى الخاصة بنساء بلادها : لقد يكون ...

وقدمت أشكال الحلوى والفاكهة ونهض فريق من المدعوين إلى القاعة يدخنون ويلعبون

وما بقى على المائدة إلا العدد القليل . وكانت بعض النساء تستسلمن للرقص والبعض الآخر للنعاس ، وعادت جوقة الموسيقى إلى العزف وتضاءلت أنوار الشموع فاستبدلت بها سواها ، فتذكرت وليمة (بترون) التى ما كانت تنطفىء المصابيح فيها حول من طرحهم السكر على مقاعدهم حتى يتسلل الخدم إلى المائدة ليسرقوا ما عليها من الأوانى الثمينة

ودام الانشاد يتعالى من أفواه الثلاثة المغنين الانكليز ذوى الوجوه الشاحبة

ودعوت ماركو الى الانصراف فنهضت واستندت إلى ذراعى فشيعنا ديجنه قائلا :

— إلى الغد

وخرجت بها من القاعة وكنت كلما اقتربت إلى منزلها يزداد خفوق فؤادى ويستولى الصمت على لحيرتى فى هذه الفانية التى تترفع عن الشهوة كما تترفع عن الكره ، وما كنت أدرك السر فى ارتجاف يدى وهى تلف هذه المخلوقة الساكنة الجامدة

وبلغنا غرفة ماركو فاذا هى على مثالها قاعة تنتشر الشهوة فى جوها ، وكانت منارة بمصباح من الرخام الناصع البياض يرسل فى جوانبها أشعة منكسرة ، وكانت المقاعد كأنها أسرة وثيرة مشدودة بالحرير على زغب الطيور ، وما دخلت إلى هذا المسكن حتى هبت فى وجهى رائحة عطور تركية أصلية مستوردة من القسطنطينية ، وهى أقوى العطور تهييجاً للأعصاب وأشدها خطراً

وقرعت ماركو جرسا فجاءتها وصيفتها الفتية وسارت واياها إلى الخدر وما لبثت حتى انطرحت فيه على سريرها وقد أسندت وجهها بيدها متراخية على عادتها

ووقفت أمامها أنعم النظر فيها وكنت كلما أوغلت فى إعجابى وكلما ازداد انجلاء محاسنها لى يستولى على شعور غريب يبدد ما تثيره هذه المحاسن من شهواتى

ولعلنى كنت مأخوذاً باستهواء من الاشعاع الخفى فتحكم فى ما فى هذه الفانية من سكون وجمود . وانطرحت متمثلا بها على القعد المستطيل قبالة سريرها وتغلغل صقيع الموت فى روحى

إن نبضان الدم فى العروق ليشبه حركة ساعة غريبة لا تسمعك خفقانها إلا فى الليل ؛ ففى طيات الظلام تتوارى مشاغل الانسان حوله فيعود منكمشاً على نفسه ليسمع حركة الحياة فيه

وامتنعت جفونى عن الغمض بالرغم مما تحملت من متاعب نهارى وأحزانه ، وكانت عينا ماركو تحدقان بى فكان كل منا شاخصاً فى الآخر وقد خيم علينا السكون

وقالت : ماذا يشغلك هناك ؟ أما تريد أن تجىء الى جانبى ؟

فقلت : بلى ... إنك رائعة الجمال يا ماركو ...

وسمعت صوتاً كأنه نبرة أنين ، وكان ذلك صوت انقطاع وتر من قيثارة ماركو . وأدرت وجهى نحو مصدر هذه الأنة ، فرأيت أوائل أشعة الفجر تلوح بنورها الباهت ستائر النوافذ

نهضت فأزحت إحدى الستائر فانتشر الضياء فى جوانب الغرفة ووقفت لحظة أنظر إلى السماء فاذا هى مجلوة صافية الأديم

وكررت ماركو دعوتها إلى ، فأشرت إليها بأن تنتظر

وكانت هذه الغادة اختارت لسكناها هذا الحى البعيد عن مركز المدينة احتراساً ؛ وكان لها منزل آخر تستقبل فيه أصدقاء عشيقها . ولعل الغرفة التى كنا فيها ليست سوى موضع خلوة ، فقد كانت تشرف على حديقة اللوكسنبور التى رأيتها منبسطة أمامى

وكنت أشعر فى قرارة نفسى بقوة أغالبها فلا أستطيع التحكم فيها فكأننى منها كالقابض على قطعة من الفلين يريد إغراقها فى الماء فتتململ بين أصابعه وتأبى طبيعتها إلا الانفلات إلى سطحه ، ولكننى عند ما مددت بأنظارى إلى مسارح الحديقة انتفض قلبى بين جنبى فهب التذكار بى يبدد كل فكرة تراودنى . لكم هربت من المدرسة وأنا صغير لألجأ إلى ظلال هذه الأشجار حيث كنت أنطرح وبيدى كتاب من جامحات الأشعار ، وتلك كانت جميع ضلالات صباى وا آسفاه . . . وتنبهت ذكرياتى البعيدة تشارفنى من الأشجار الباسقة العارية من أوراقها وتتطلع إلىّ من خلال الأعشاب الذابلة تحت ظلالها . إلى هنا أتيت مرة للتنزه مع أخى ومعلمى وكنت فى العاشرة من عمرى ، فكنا نرمى بقطع الخبز إلى ذرافات الطيور الجاثمة . وهنا جلست مرة منزوياً أتفرج على رهط من الفتيات يرقصن فيرقص قلبى لنغماتهن : نغمات نشيد الأطفال ؛ وهنا أيضاً مررت ألف مرة على الطريق ذاتها فى رجوعى من المدرسة ، وأنا أقذف الحصى برجلى ، وأطارد بذهنى بيتاً من قصائد فرجيل

شخصت مليا أمام هذه المشاهد فهتفت :

— هذه أنت ياطفولتى ، وها أنت هنا يا إلهى

وأدرت طرفى إلى الغرفة فاذا ماركو نائمة وقد انطفأ المصباح ؛ وكان ضوء النهار قد بدل منظر الغرفة تبديلا ، فظهر لون الورق الملصق على الجدران ، وكنت حسبته فى الليل مستعيراً زرقة الآفاق ، بلون الأوراق الخضراء وقد أحالها الذبول ، ورأيت ماركو ، التمثال الرائع ، منطرحة على سريرها ووجهها ممتقع كوجه الأموات

ولكننى رعشة لم أقو على امتلاكها فكنت أنظر تارة إلى السرير وطوراً إلى الحديقة فأشعر بثقل هائل يخفض رأسى المتعب

وتقدمت بضعة خطوات إلى مكتب كان مفتوحاً قرب نافذة أخرى فجاست مسنداً ساعدىّ إليه ، والتفت بلا قصد أحدق برسالة تُركت مفتوحة عليه ، وهى لا تتضمن إلا كلمات قليلة ، فقرأتها مراراً دون أن أفهم معناها حتى انجلت تدريجاً ، فذعرت منها فجأة ، وأخذت الورقة بيدى أقرأها ، فاذا هى مشحونة بأغلاط الاملاء . وقد ورد فيها :

(لقد ماتت أمس عند الساعة الحادية عشرة ليلا . شعرت بانقباض فدعتنى وقالت لى : لويزون أنا ذاهبة للقاء رفيقى . افتحى الخزانة وخذى منها الغطاء المعلق بمسمار فانه كذلك الغطاء . . .)

جثوت باكية أمامها فمددت إلى يدها صارخة : لا تبكى . . . لا تبكى . . . ثم أرسلت زفرة . . .)

وكان باقى الصفحة ممزقاً

يصعب على بيان ما فعلت بى هذه الأسطر الفاجعة . قلبت الرسالة بيدى فاذا على ظهرها عنوان ماركو وتاريخ اليوم المنصرم فصرخت : — لقد ماتت . . . ومن هى التى ماتت ؟

وتقدمت نحو السرير منادياً : من هى التى ماتت . . .

وفتحت ماركو عينيها فرأتنى مستنداً إلى سريرها والرسالة فى يدى فقالت :

— هى أمى . . . أفما تريد أن تأتى إلى جنبى . . . ومدت ذراعيها نحوى . فقلت لها : — اسكتى . . . نامى ودعينى هنا . فانقلبت على جنبها لتستغرق فى نومها ثانية

وشخصت إليها حتى تأكدت أنها لن تسمع حركتى وتراجعت رويداً وانسحبت من المكان

(يتبع) فليكس فارس